الجزء ١١ المجلد ٩

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) تشرين الثاني : سنة ١٩٢٩ م الموافق جمادى الاولى والثانية سنة ١٣٤٨ هـ

يهود الشام

منذ مئة عام (١)

نحن اليوم في سنة ١٣٤٢ هـ . فاذا رجعنا الى ما قبل مئة سنة كاملة اي الى سنة ١٢٤٢ (الموافق ١٨٢٦ م) وجدنا أنفسنا في زمن ولاية (صالح باشا) على دمشق . وهو الوالي الذي جرت معظم حوادث هذه المحاضرة في زمنه . و (صالح باشا) هذا هو احد صدور الدولة العثمانية : تقلد ولاية الشام للمرة الاولى سنة (١٢٣٨ هـ — ١٨٢٢ م) ثم عزل ووُلي مكانه (إيجلي احمد باشا) سنة (١٢٣٩ هـ — ١٨٢٣ م) واحمد باشا هذا مات بحمص . وخلفه في ولاية الشام (مصطفى باشا) في السنة نفسها اي سنة (١٢٣٩) ثم عُزل وخلفه (ولي الدين باشا) سنة (١٢٤١ هـ — ١٨٢٥ م) . وفي السنة التالية اي سنة (١٢٤٢) أعيد (صالح باشا) المذكور .

ففي غضون اربع او خمس سنوات تعاقب على ولاية الشام خمسة ولاة . وقد ذكر (لامنس) في تاريخ سوريا أمراً أغرب من هذا . وهو ان احد قناصل حكومة البندقية في حلب كتب في تقرير رفعه الى حكومته : أنه تعاقب على ولاية حلب في مدة ثلاث سنين تسعة باشاوات . اي باعتبار اربعة اشهر لكل واحد منهم .

---

(١) أُلقيت هذه المحاضرة في ردهة المجمع العلمي مساء الجمعة في ٩ تشرين الثاني سنة ١٩٢٣ م و١٣٤٢ هـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا أحاول في محاضرتي هذه ان اقصّ اخبار ولاة الشام ولا الاخبار التي جرت في عهد احدهم (صالح باشا) وانما أريد ان أذكر حوادث صيارفة اليهود وكيف استبدوا في ذلك العهد بحسابات بيت المال بل بالحركة الاقتصادية العامة . اما المصادر التي استقيت منها حوادث هذه المحاضرة فهي :

(١) مجموعة مخطوطة في مكتبتي وهي للمرحوم علي افندي الكيلاني مفتي حماة المتوفى في حدود سنة (١٢٤٠ هـ — ١٨٢٤ م) وكان رحمه الله يدوّن فيها ما يستحق التدوين من شؤونه الخاصة وشؤون أسرته الكيلانية وبعض ما يقع اليه من اخبار اهل عصره .

(٢) كتاب مخطوط في موضوع تاريخي خاص ألفه كاتب مسيحي [1] مشهور في دمشق وقد عمّر طويلاً حتى أدرك — وهو ناشيء — حوادث الصيارف التي كانت تقع في ذلك العهد .

(٣) بعض أصدقائنا من أفاضل دمشق الذين وقفوا على أخبار بلدهم وأسرار تاريخها الحديث .

هذه هي المصادر التي اعتمدت عليها في محاضرتي : فهي حوادث غضّة طريّة . لم تعرف بعد . ولم تتعاورها أقلام الكتاب بمناقشة او نقد . فمن ثم كانت جديرة باقبالكم عليها . واصغائكم اليها .

* * *

كان لصيارفة اليهود منذ مئة سنة اي قبل وضع النظام المالي الحالي عز وصولة . وأصبح لهم عند ولاتها وحكامها نفوذ ودولة . حتى كان الناس يتناشدون ما قاله الشاعر فيهم :

(يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا)
(المال فيهم . والجاه عندهمو ومنهمو المستشار والملك)
(يا اهل ذا العصر قد نصحت لكم تهوّدوا قد تهوّد الفلك)

ومما استبدوا به في ذلك العهد من أعمال الحكومة شؤونها الحسابية . وأسرارها المالية . حتى ما كان منها متعلقاً بركب الحج وترحاله . وتهيأة لوازمه وتدارك أمواله : فكانوا

(١) هو الدكتور ميخائيل مشاقة المؤلف المشهور .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يتعللون أحياناً بان المال المخصص للركب لم يتوفر بعد . او ان الجبايات في هذا العام نقصت عن الحد . الى غير ذلك مما حمل النـاس على التذمر منهم . ومتابعة الشكوى للحكومة عليهم . لكنهم كانوا اذا راجعوا ولاة الشام في ذلك أظهر الولاة عجزاً وحيرة في تلافي الشر . وكثيراً ما يكون لبعض ولاة السوء علاقةٍ بالصيارفة وميل اليهم . واعتماد في الصيد عليهم .

ثم لما استفحل امرهم ، واستشرى فسادهم ، رفع بعض اهل دمشق عريضة شكوى الى (السلطان محمود) . وكان السلطان يومئذ مشغولاً بامر الانكشـارية الذين طغوا في البلاد ، واكثروا فيها الفساد . ولاسيما مدينة (حلب) التي مُنيت من شرورهم بما لم تمن به مدينة غيرها . وكان سكانها يومئذ حزبين او فريقين : (انكشارية) و (سيّاد) . وكان يلحق فريق (السيّاد) من (الانكشارية) اذىً كبير ، وشر مستطير . ولقد ظفرت بقطعة شعرية مكتوبة على ظهر كتاب مخطوط وصف بها قائلها حالة الفريقين في ذلك العهد فقال :

(يا مصطفى ان القلوب منغّصة بينيك في الشهباء حلت منقصة)
(في جامع يدعى (الطروش) لقد غدت بدمائهم تلك الأماكن مفتصة)

قوله (مفتصة) كذا بالاصل بالفاء ولعلها (مغتصة) بالغين المعجمة اي (غاصة) فخففت لضرورة الوزن . وليس ذلك بجائز . اما جامع (الطروش) فهو جامع (الأطروش) احد جوامع حلب وهو اليوم في حالة خراب وموقعه أمام قلعة حلب ملاصق لسوق الجمعة :

(أدرك بجسم الحق ساء مزاجه ولقد كوى الاشراف ابن الحمصة)

(ابن الحمصة) رئيس انكشارية حلب في ذلك العهد . وقد عني بالاشراف فريق السياد .

(أقبل وقل للحربلي الجربُ لي وأذق لظلاّم الاوجاق المخمصة)

(الحربلي) اسم عائلة من عائلات حلب كان رجالها في اوجاق الانكشارية . وما زالت هذه العائلة الى اليوم في حلب لكنها منحطة :

(في النازعات اجعل لنا ياسينهم وجميعهم . ليست اليه مخمصة)

(ياسينهم) اي ياسين الانكشارية وهو احد زعمائهم في ذلك العصر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(فـدماء أعداء الاله ثمينـة ودماء اولاد الرسول مرخصة)
(ولأنت أولى بالجميع وهـذه شكواهم رفعت اليك ملخصة)

هكذا كانت حالة البلاد من جراء فتنة الانكشارية في ذلك العهد والسلطان محمود منهمك فيها . وعاصمته (القسطنطينية) قائمة قاعدة من أجلها .

وبينا الحالة كذلك والشكوى من الانكشارية ترفع الى السلطان اذا عريضة أخرى بالشكوى من صيارفة الشام رفعها اهلوها الى السلطان يشكون اليه ظلم اولئك الصيارفة واستبدادهم بالديوان . واحتجانهم المنافع . فلم يكن اهتمام السلطان بامر الانكشارية بالذي يصرفه عن النظر في امر اولئك الصيارفة . وتلبية نداء الدماشقة . فامر بعزلهم من (ديوان السرايا) والاستعاضة عنهم بغيرهم ممن يحسنون العمل . فأخذ حكام الشام ينتظرون الفرص لتنفيذ الارادة السلطانية .

وكانت عقدة العقد في أمر هؤلاء الصيارفة انهم كانوا يكتبون (دفاتر الديوان) باللغة العبرانية التي لا يعرفهـا سواهم . ثم على تمادي الايام اصبحت تلك الدفاتر كأنما كتبت بالقلم (القلفطيري)[1] لا العبراني . واصبحت ارقامها وجداولها اشبه بالقلفطيريات . منها بالقيود والحسابات . بحيث لم يبق في وسع احد من الناس غير الصيارفة ان يهتدي الى فهم ما فيها . واكتناه اسرار معمياتها .

هذه كانت حالة (دفاتر الديوان) في ذلك الوقت . والى هذا الحد بلغت الحيرة في فهمها ، وحلّ رموزها . وكان الوزير من وزراء الشام اذا أراد عزل هؤلاء الصيارفة من (ديوان السرايا) وضبط الدفاتر وسحبها من بين أيديهم للوقوف على سرها . ودخيلة امرها — أدرك عجزه لأول وهلة وعلم ان من يخلفهم ، لايحسن عملهم ، ولا يكفي المهمّ مثلهم . وربما خشي الوالي ان تقع ماليـة الولاية وحسابات الديوان في التشويش والارتباك فيسكت على مضض وهمّ مقلق .

---

(١) (القلم القلفطيري) خط اليهود الذين يكتبون به التعاويذ والرقى بآيات من التوراة . ثم توسع كتاب العرب في استعمال (القلفطيري) و (القلفطيريات) فاطلقوها على كل ما كان من قبيل الطلاسم والرموز من الكتابات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان[1] اولئك الصيارفة يجتهدون في وضع خزائن الحكومة وايراداتها ومصارفها تحت أيديهم . ويسعون في الحصول على أوامر سلطانية تكون سنداً بايديهم تشير بتوظيف الصراف على خزينة الولاية الفلانية . وبهذه الصورة يأمنون على مراكزهم فلا يحق للولاة ان يعزلوهم متى شاءوا . ولا سيما ان الولاة يبدّلون كل مدة قصيرة كسنة وسنتين . ومن جراء ذلك تصبح الولاية للولاة بالاسم ، وللصيارفة بالفعل . والوالي يكون كمأمور بعمل بحسب رغبة الصرّاف الذي بيده الايراد والمصرف . ووظيفته مستقلة دائمة بامر سلطاني ، لا يقدر احد على معارضته . بل ان بقاء الوالي وعزله وإدانته وبراءة ذمته كل ذلك بيد الصيارفة : فان جاملهم وأطاعهم رحموه عند عزله . وقدموا له حساب الايراد والمصرف بدون خسارة . يفعلون ذلك لقاء مبلغ يقبضه منه صرّاف الباب العالي بالاستانة .

فخزينة إيالة الشام كانت في ذلك العهد بيد أفراد عائلة مخصوصة[2] وبمساعيهم تعاظم غنى اليهود بدمشق . وكان اكبر[3] صيارفة الخزينة من هذه العائلة . ومع قلة معارفه كان الأهالي يخشون سطوته ويحسبون حساباً لدهائه .

وكانت قرى دمشق بنوع أخص تضطر الى الاستدانة ، اذ ان أموالها الاميرية كانت مربوطة على السنة القمرية بسبب ترتيبها لمصارف ركب الحج الذي يكون تسفيره على الحساب القمري . والحساب القمري لا يتفق دائماً مع السنة الشمسية التي بحسبها يكون طلوع الغلال وأوقات زراعتها . فلذلك يضطر الفلاح ان يستدين لدفع مال الميرة الذي عليه . هذا عدا ما يلزمه لمصارفه الخاصة ولتقوية أمور فلاحته .

فهذه القرى يترتب لها مداينون يعطون الفلاحين مايحتاجون اليه من الدين بالربا ويسمى هؤلاء المرابون عملاء او شوابصة . والشوابصة يكونون من صيارفة اليهود خلا

---

(١) التفصيلات الآتية عن أعمال اليهود في مالية الحكومة ملخصة من مخطوط الدكتور ميخائيل مشاقة الذي مرت الاشارة اليه والى مخطوطه وقد الفه في مساوي القوم وسماه (الايضاحات الجلية الخ) . (٢) هذه العائلة في بيت فارحي . (٣) واسمه (روفائيل شحاده) واخوه واسمه (سلمون) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قرى قليلة تكون لها علاقة باحد أعيان المسلمين لكونها ملكه او وقفه ، فهو يدفع الاموال الاميرية عنها .

فمتى قرب موسم الحج وطلوع المحمل الى الحجاز تجتهد الصيارفة برفع أسعار النقود و يُقنعون باعة البضائع بان ارتفاع أسعار النقود يرغب الأغراب القادمين للحج في مشترى بضائعهم ، فيصدق الباعة ذلك ، ولا ينتبهون لغرض الصيارفة ، فتصعد الاسعار غالباً بالمئة عشرين . وبعد سفر الحج ترجع الاسعار الى حالها .

فصرّاف الخزينة حينما يُطلب منه ثمن لوازم الحج او نقود للعساكر التي تسافر مع المحمل للمحافظة عليه وهي في حاجةٍ الى شراء خيول وأسلحة — حينئذ يأخذ الصراف بالاعتذار بعدم وجود نقدية في الخزينة في الوقت الحاضر ، ثم يعطي العسكري ورقةً حوالة على الخزينة فيضطر العسكري ان يبيعها للصيارفة الذين يكونون منتشرين حول الخزينة ولا يبرحونها في تلك الايام ، فيشتري الصيرفي الحوالة و يدفع ثمنها المئة ثمانين حسب أسعار النقد الرائج بوقتها ، ثم يسدّدها للخزينة عن مطلوبها من القرية التي يعاملها .

فالمئة المدفوعة منه للخزينة ورقاً لم تكن قد كلفت عليه سوى اربعة وستين بسبب رفع سعر النقود بالمئة عشرين او أكثر . ثم ان صراف الخزينة يحسبها على الفلاح عملة الخزينه و يضيف اليها عشرين فرق المعاملة فتصبح (١٢٠) ثم يضيف اليها المرابحة ومرتبات العميل التي يسمونها (الشوبصة) الى غير ذلك مما أثقل كاهل المزارعين ومعظم سكان الشام منهم . فكانت تتسرب أثمان حاصلاتهم الى جيوب الصيارفة وبذلك أصبحوا أغنى سكان دمشق .

ففي زمن ولاية (ولي الدين باشا) على الشام وذلك سنة (١٢٤١ هـ — ١٨٢٥ م) انتبه الى خيانتهم وانه لم يعد يجوز إئتمانهم على خزينة الحكومة . وكانت الشكايات تنابع الى الباب العالي والاوامر السلطانية ترد تترى برفع الظلم وانصاف الاهالي . فكتب الوالي المذكور الى الباب العالي بلزوم عزل كبير [1] الصيارفة عن تولي امور الخزينة فلما شعر هذا بالامر هرب حالاً الى بغداد خشية ان يُناقش الحساب . فحل به العقاب .

(١) وهو روفائيل فارحي الذي مر ذكره .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبعد هربه أراد الوالي ان يعين خلفاً له فارتبك في الامر : لانه إن عين احداً مكانه من صيارفة اليهود بقي المشكل على حاله ، فبلغه ان في حمص رجلاً مسيحياً ماهراً في أعمال الصرافة والامور الحسابية وهو من عائلة معروفة[1] في حمص فدعاه الى دمشق وعينه صرّافاً للخزينة مكان صرافها الاول . فقامت قيامة طائفة الصيارفة لهذا التعيين وحسبوه ضاراً بهم مسقطاً لمنزلتهم . فكتبوا الى كبيرهم روفائيل الذي هرب الى بغداد وجعلوا يعملون يداً واحدة في الاستانة على عزل والي دمشق وتعيين غيره . فوفقوا الى ذلك وعين صالح باشا للمرة الثانية وذلك في سنة (١٢٤٢ هـ — ١٨٢٦ م) . عندها رجع روفائيل كبير الصيارف من بغداد الى وظيفته في دمشق . و يقال انه انفق في هذا السبيل (٣٥٠٠) كيس والكيس (٥٠٠) قرش فيكون المجموع مليوناً وسبعمائة وخمسين الف قرش .

ولما تبوأ كبير الصيارف مركزه وعاد الى سابق نفوذه لم يكفه عزل الصراف الحمصي بل جعل يدس الدسائس لقتله كي يكون عبرة ونكالاً لكل من اراد ان يتولى هذه الوظيفة من غير طائفة الصيارف . واخذ يبذل الاموال الطائلة الى الوالي (صالح باشا) ليحمله على قتل ذلك الصراف الحمصي المسكين . لكن الوالي كان رجلاً صالحاً فلم يخدعه بريق الذهب . ففكر في طريقة تنجي ذلك الصراف من كيد الصيارفة فعرض عليه الاسلام وقال له : انك ان اسلمت انقطعت عنك اطماع اعدائك وحفظت نفسك من اذاهم وامكنني ان أبقيك في (ديوان السرايا) رقيباً على الصيارفة ومشرفاً على الحسابات وسائر المعاملات . فلا تظل خزينة الحكومة تحت رحمة اولئك الصيارفة .

فانشرح صدر الرجل للاسلام فاعلن[2] اسلامه وسمي (محمد افندي هدايت)

---

(١) اسم الرجل اسكندر وعائلته تعرف في حمص باسم (بيت الكاتب) .

(٢) هذا ما نرويه في سبب اسلامه عن مصادر موثوق بها ولكن جاء في مخطوطة (نوفل نعمة الله نوفل) الطرابلسي التي تتضمن حوادث دخول ابراهيم باشا للشام المحفوظة في مكتبة (الجامعة الاميركية) ما يلي : (صالح باشا والي دمشق صادر سلمون وروفائيل شحادة فارحي الاسرائيليين كاتبي خزينة دمشق وعذبهما وسجنهما وكان قد اراد قتل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وابتهجت قلوب الدماشقة بذلك ما عدا طائفة الصيارفة بالطبع .

وعد الناس فض المشكل على هذه الصورة من حسن ادارة الوالي (صالح باشا) ولطفه في سياسته .

ولو كانت هذه الحادثة في هذا الزمن زمن الصحف والجرائد لكان الصحافيون هم الذين يشنون الغارة على طائفة الصيارفة ويهيجون الرأي العام عليهم .

اما في ذلك العهد (اي منذ مئة عام) فلم يكن في سوريا صحافة ولا صحف . ولا قبس ولا الف باء ولا تسكير اسواق ولا اقفال مخازن ولا اقامة مظاهرات وكل ما كان موجوداً في ذلك العهد شاعر خفيف الروح . سريع الخاطر . حاضر النكتة . لايدع شاردة من حوادث زمانه تفلت من دون ان ينظم القصائد فيها و ينبه الافكار اليها . اعني به (الشيخ امين الجندي) شاعر حمص بل شاعر الشام في تلك الايام .

فلا جرم ان يكون الشيخ امين من اشد الناس سروراً باسلام ابن بلده (هدايت افندي) فاحتفل لهذه الحادثة ايما احتفال ونظم قصيدة لامية دوّن فيها حكاية الصيارفة وقبيح اعمالهم ووصف حزم الوالي صالح باشا واسلام (هدايت افندي) وافتتحها بمدح السلطان محمود الذي اصدر امره بعزل اولئك الصيارفة . وقال في مطلعها [1] :

وافتك بالعز خود زانها الطول بديعة لحظها بالسحر مكحول

سكندر الحمصي الكاتب فاسلم فنصبه عوض اليهودي وسماه (هدايت افندي) واحضر رماناً بعدم استخدام اليهود بعد ذلك في امانة صندوق الشام ثم بعد مدة وجيزة قتل اسكندر المذكور واستكفى بعبد الله نوفل الذي استخدمه بمحله اه . اقول ولكن سيأتي معنا ان الذي قتل اسكندر هو رؤوف باشا لا صالح باشا الذي اسلم في زمنه وان السبب في قتله وشاية الصيارف به لمزاحمته لهم في امور الخزينة و بذلك يخلصون من شره . واعل فعل (قتل اسكندر) بضم القاف مبنياً للمجهول وكذلك فعل (استكفي) فيكون في ذلك اشارة الى ان القاتل هو الوالي الذي خلف صالح باشا .

(١) ديوان الجندي طبع طبعتين: في احدى الطبعتين نشرت القصيدة برمتها وفي الاخرى نشر مطلعها وابيات المدح التي قيلت في السلطان محمود فقط .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومازال شاعرنا الجندي يتغزل بالخود الذي زانها الطول ، ولحظها بالسحر مكحول ، حتى قال في مدح السلطان محمود :

(أنقى السلاطين محمود الفعال ومن ... بالعز والنصر محفوف ومشمول)
(فكم معارك حرب قد أباد بها ... حزب الضلال فولى وهو مخزول)
(من فوق طرف كان الصبح شق له ... من نوره غرة بيضا وتحجيل)
(في حلة من سنا التقوى يزينها ... بأس وحلم واحسان وتنويل)
(ما تمسك المال عن راجيه راحته ... الا كما يمسك المال الغرابيل)
(نشكو لعلياه ما فاست رعيته ... من البلايا وعقد الصبر محلول)
(حيث استطالت بقطر الشام طائفة ... على البلاد . وهم قوم مناكيل)
(وقدمتهم مواليها وما علموا ... بان تقديمهم جور وتضليل)
(مدوا من المكر اشراكاً وطبعهم ... على الخداع وقول الزور مجبول)
(صادوا بها كل نسر في الثرى ونحوا ... نسر السما فانثنوا والعزم مفلول)
(هم في التقلب كالافياء ثم وفي ... تلوينهم قل همو الحرباء والغول)
(قد كان من سحرهم ان الوزير متى ... أصغى لهم قال : مهما شئتمو قولوا)
(كم مرة مكروا بالايرياء وكم ... خانوا وزيراً له بالعدل تجميل)
(وكم الى السجن قادوا غافلاً فمضى ... منكس الرأس بالاصفاد مغلول)
(من عهد سبعين عاماً هم صيارفة ... اذا مضى منهمو جيل أتى جيل)
(حيث الدفاتر عبرانية رقمت ... خلاف ألسننا والسر مجهول)
(وليس يعلم أتراك ولا عرب ... ما خط فيها ولا المنقول معقول)
(وكل ما تحتويه باطل كذب ... بل انها كلها زور وتخييل)
(ظنوا بان امور الحج بعدهمو ... ينال ترتيبها بخس وتعطيل)
(شيدت على الشح والشكوى بيوتهمو: ... فليس فيها لضيف قط مأكول)
(أموال عكة ماذا يصنعون بها ؟ ... ما آن آخذ لها ما آن تحصيل ؟؟)
(لمال كل وزير قد مضى ورثوا ... حياً وميتاً : فهل في ذاك تحليل ؟)
(فيا أولي الامر ما هذا التهاون في ... أمر عظيم به للحق تذليل ؟)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(أما اتى : (كل راعٍ عن رعيتـه يوم الحساب لدى الجبار مسؤول؟)
(فكيف ترجوك عهداً للذين هم بُهْتٌ شحاح مشائيم مناكيل)
(كم بالربا سحبوا ذيل الخراب على أهل البلاد وكم قالوا لهم : زولوا)
(حتى اذا ألهم المولى خليفتـه في قعرهم — إمّحت تلك الاباطيل)
(بصالح الوزراء الصدر أصلح ما قد أفسدوه وسترُ الله مسدول)

ثم ذكر مناقب صالح باشا وعدّدها فقال :

(منها بنى جامعاً فيه الصلاة زكت وقد حلا فيه للقرآن ترتيل)
(كذاك إسلام ذي رشد على يده حرٍّ عفيف له فكر ومعقول)
(ملقب (بهدايات) وحيث سمي (محمداً) فله في ذاك تفضيل)
(لولاه ما بان مكر القوم قط ولا من رقمهم ظهرت تلك التهاويل)
(الله أكبر ذا أمر قد انشرحت منه الصدور . وذا باع له طول)
(مُنّت بإيمانه اهل الهدى وعلا لعُصبة الحق تكبير وتهليل)
(كم ذا أراد العدى ان يخذلوه وقد خابوا فكانوا هم النكس المخاذيل)

الى ان قال في ختام هذه القصيدة الفريدة :

(أو ما أمين بحمص الشام فيه شدا وافتك بالعز خود زانها الطول)

هذا ايها السادة ما وقع في الشام . منذ مئة عام من خبر صيارفة اليهود . واستفحال شرهم . وتدارك امرهم

ولكن هل اصطلم الشر . واستؤصلت جذوره بالمرة بحيث لم يبق لسلطة الصيارفة اثر ولا تأثير في حكومة دمشق بعد ان تقلص ظل ولاية (صالح باشا) ؟ كنت اظن ذلك حتى ذكر لي بعض الفضلاء [1] من اصدقائنا المسيحيين حادثة وقعت لابيه في زمن ولاية الوالي الذي خلف (صالح باشا) واسمه (رؤوف باشا) او (عبد الرؤوف باشا) وولايته كانت سنة (١٢٤٤ هـ — ١٨٢٨م) و يفهم مما ذكره هذا الصديق أن نفوذ

(١) هو المرحوم الياس بك قدسي ابن عبدو بك قدسي من وجهاء النصارى في دمشق واحد اعضاء مجمعنا العلمي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصيارفة وصولتهم عادت الى أشد ما كانت عليه . — قال ان والده عبدو بك تعرف في عهد حداثته برجل اعمى من اهل دمشق يدعى (حميصه) سمي بذلك لانه من مدينة حمص . وقد اتفق معه على الاشتغال بالصرافة . وكان حميصة هذا نشيطاً جريئاً عارفاً باصول هذه المهنة واقفاً على اسالبها الناجحة غير انه اعمى العينين لايمكنه التجول ولا التنقل من مكان الى آخر وهو امر ضروري للصراف فاتفق مع عبدالله (عبدو) والد صديقنا على ان يقوده من مكان الى مكان و يغشى به المجامع حيث التجار والمرابون وارباب الاموال . وهناك يعملون معاً على الكسب . و يكون الربح الحاصل من ذلك بينهما بالسوية . قال وكانت لطائفة الصيارفة صولة في تلك الايام وتمكن من نفوس حكام الشام : فكانوا يخفضون سعر العملة اياماً ثم يرفعونه فجأة وبذلك يربحون ارباحاً عظيمة . و يجعلون من هذه الارباح نصيباً مفروضاً للحكام الذين يطلعونهم على سرهم . و يشاركونهم في صحتهم . ومن جملة اعمالهم انهم كانوا يسحبون من النقود المتداولة شيئاً من فضتها وذهبها وذلك ببردها بالمبرد او بالقطع منها . فاخترع عمال (الضرب خانه) طريقة لوقاية النقود وحفظها من السرقة فجعلوا حولها على دوائرها زنجيراً منمناً مخرّماً فاذا سرق شيء من طرف النقد بالبرد اوالقطع انثلم النقد وعرف الناقص من غير الناقص من الدنانير لكن الصيارف احتالوا بحيلة جديدة وهي انهم جعلوا يغطسون نقود الذهب والفضة بمحاليل كيماوية ثم يأخذون ماانحل منها في الماء من دون ان يظهر على النقود نقص او برد او حك او تلاعب في الزنجير .

قال الصديق : ثم ان حكومة الشام أعلنت (باقتراح من الصيارف) ان الايام الفلانية والايام الفلانية لايجوز الاشتغال فيها بالصرافة ومن خالف حوزي جزاء صارماً .

فاما (عبدو) وشريكه (حميصة) فقد حسبا ان هذا المنع لايتناولهما لان عبدو شاب لم يزل حديث السن وشريكه حميصة أعمى . وتعرفون ايها السادة انه ليس على الاعمى حرج .

غير ان الصيارفة ماكانوا يؤمنون بهذه الآية القرآنية بالطبع فوشوا بهما الى والي الشام (عبد الرؤوف باشا) فطلبهما اليه فدخلا عليه وهو في الديوان وعنده كبير الصيارفة . فجعل (عبدو) يعتذر بصباه . ورفيقه حميصة يبكي شجوه و يندب عماه . واخذ كبير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الصيارفة يقطع حديثهما . و يهول الامر عليهما . و يغري الوالي بهما . حتى احفظ قلبه فأمر بشنقهما .

وكانت سراي الوالي رؤوف باشا يومئذ في البرامكة حيث الكشك المعروف اليوم على طريق محطة البرامكة المطل على المرجة وقد كان في زمن الحرب العامة نادياً (كلوب) للضباط العثمانيين . وبعد ان كبر عبدو بك القدمي وشاخ كان كلما مر بذلك المكان مع ابنه صديقنا الياس بك يشير الى موقع السراي ويحكي لابنه حادثة صبوته هذه وحادثة رفيقه حميصة الحمصي و كيف امر الوالي رؤوف باشا بشنقهما .

غير ان الله تدارکهما بلطفه وعنايته فحبسا اياماً ثم خُلّي سبيلهما بشفاعة بعض الشافعين . من أعيان الدمشقيين .

فيستدل من هذه الواقعة ان نفوذ اولئك الصيارفة استمر بعد زمن صالح باشا وبقي الى زمن ولاية رؤوف باشا وكان رؤوف باشا هذا ظالماً قاسي القلب كما سمعتم من خبره مع حميصة . بل ان له خبراً آخر أدل على ظلمه وخبثه ذلك ان طائفة الصيارفة في زمنه عادوا الى دس الدسائس للانتقام من الصراف الحمصي (محمد افندي هدايت) الذي أسلم في زمن صالح باشا . فيقال ان اولئك الصيارفة مازالوا يطمعون (رؤوف باشا) بالمال و يزينون له البطش بذلك المسكين بغتةً بلا سؤال ولا جواب حتى قتله [1] ، واستلمت طائفة الصيارفة الخزينة واستبدوا بها من دون مشارك ولا معارض .

ثم مات رؤوف باشا وخلفه في ولاية دمشق (سليم باشا) وهو الذي ثار عليه اهالي دمشق لكونه فرض على العقارات ضريبة (مصريتين) فقتلوه سنة (١٢٤٧هـ — ١٨٣١م) وفي السنة التالية زحف المصريون بقيادة (ابراهيم باشا) واستولوا على بر الشام فحفظوا مال الخزينة من اولئك الصيارفة بقدر الامكان وتوصلوا الى ذلك بتعيين (يحيى افندي) وهو يهودي من حلب كان اسمه (بيخور) فأسلم وسمي (يحيى افندي) وكان حاذقاً في امور الصرافة والمعاملات المالية .

ثم من يومئذ صلحت الاحوال ، وانتظمت الاعمال ، وتوفرت في الخزينة الاموال ،

(١) راجع هامشة ص ٦٤٧ من هذا الجزء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولم يعد لصيارفة الشام تأثير كبير في نفوس ولاتها بل كان كلما جاء احد هؤلاء الولاة الى دمشق اضطر كبير الصيارف ان يتوسط بعض أعيانها في ان يقدّمه الى الوالي و يعرّفه مكانته ووجاهته في قومه ·

لكن كان كبير الصيارفة لا يصل الى بين يدي الوالي و ينال منه حظوة حتى يبذل للواسطة اموالاً طائلة · فكان الصيارفة يتململون من هذه الوساطة والنفقات التي ينفقونها في سبيلها كلما جاء والٍ جديد · فاستنبطوا للخلاص من ذلك حيلة غاية في الرقة واللطف والذوق ·

ذلك ان كبيرهم (شمعايا) بنى قصره الشهير في (دمّر) على قارعة الطريق الاعظم المؤدي الى الشام فصارت طائفة الصيارفة اليهود لا يدعون والياً يدخل الشام حتى ينزلوه ضيفاً عزيزاً في هذا القصر على الرحب والسعة · مما يذكرنا بقول شاعرنا العربي مع ملاحظة الفرق بين البيتين :

(ضربوا بقارعة الطريق قبابهم ينقارعون على قِرى الضيفان)

(و يكاد موقدهم يجود بنفسه حب القِرى حطباً على النيران)

ففي خلال إقامة الوالي في (قصر شمعايا) وحفد القوم في خدمته والانفاق من سعة على ضيافته تتوثق بينه وبين كبار الصيارفة روابط الصداقة والمحبة · وبنفقات قليلة في (قصر شمعايا) استغنوا عن نفقات كثيرة كانوا يبذلونها لاعيان الشام لاجل تقديمهم الى الولاة عدا ما يصحب ذلك من التملق والتذلل وتحمل المنة · فما ألطفها حيلة ، وما اسهلها وسيلة ·

وهكذا أيها السادة انطوى ذكر الدور العجيب الذي كان يمثله صيارفة الشام · منذ مئة عام · ولم يبق من أثره سوى هذا القصر الذي يشهد على ما كان منهم في سالف الايام ·

«المغربي»

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net